ميخائيل نعيمة مصلحا اجتماعيا

الدكتورة. نضال الأميوني دكاش
الجامعة اللبنانية ألأميركية – لبنان
nidale.daccache@lau.edu.lb

ملخص :

لا يكون المجتمع إلّا بالمرأة والرّجل، إذاً هي أحد جناحيّ البشريّة، وهي شريكة الرّجل في مغامرة الحياة، وفي بناء العائلة والمجتمع، وفي البحث عن المعرفة وتحقيق الذات. لولاها لما كان الرّجل، ولولا الرّجل لما كانت المرأة. ولولا الإثنين لما كان مجتمع. هي أمّ الحياة، ومُعينة في البحث عن هويته، وفي تحقيق خلاص المجتمع بنائه عبر الإنتقال من الثنائيّة إلى الأحديّة. تعد مجتمع صحيح.

الكلمات المفتاحية:المرأة –الرجل– العائلة– الحياة–الأم– المجتمع البناء– الخلاص– الهوية.

Abstract:

Women and men can only create society. Therefore, she is one of the two wings of humanity, and she is partner with men in the adventure of life, building family and society and searching for knowledge and self-realization. Without her, the man would not have been, and without man, the woman would not have been. She is the mother of life and a helper in searching for his identity, achieving the salvation and building of society through the transition from dualism to monism.

Keywords: Woman - man - family - life - mother identity - salvation - constructive society.

مقدمة:

قُمْ، أيّهَا الماضي البعيد، فقد آنَ الأوانُ لبناء مجتمعٍ صحيح. إستيقِظْ من نومِكَ الطويل أيها الإنسان، فالنومُ وجهٌ من وجوهِ الموت. قُمْ نُذكّر، ونُعيد المحبّة والصِدْق والعَطاء والرّجوع إلى الإنسانية... إنّ أوّل ما يستفيق عليه الإنسان من وجوه هو ذاته، هو «الأنا». فهي بالنسبة إليه المحور الذي تدور حوله جميع تحركاته ونزوعاته ومآتيه في خطِّ حياته كلِّها. فهو في ذلك إنما يعبّر عن رغبته في الخير والسعادة والازدهار لنفسه، وعن كرهه لكلِّ ما من شأنه أن يلحق بها الضرر والأذية. فإذا كان الأمر كذلك، كانت

وظيفة الإنسان الأولى والأخيرة أن يعرف نفسه على حقيقتها كي لا ينخدع في حياته، فيقوم عن جهل بما يعتقده خيرًا وسعادةً لنفسه، فإذا به ينقلب الى شرٍّ وبلاء.

يرى نعيمة أنّنا في كلِّ ما نفعل، وكلِّ ما نقول، وكلِّ ما نكتب، إنّما نفتش عن أنفسنا. فإن فتّشنا عن الله فنجد أنفسنا في الله، وإن سعينا وراء الجمال فإنَّما نسعى وراء أنفسنا في الجمال، وإن طلبنا الفضيلة فلا نطلب إلاَّ أنفسنا في الفضيلة. فكلُّ ما يأتيه الإنسان إنَّما يدور حول محور واحد هو الإنسان. حول هذا المحور تدور علومه وفلسفته وصناعته وتجارته وفنونه؛ وحول هذا المحور تدور آدابه. إنطلاقًا من هذه القناعة، ينظر ميخائيل نعيمة إلى الأدب من مبدأ دراسة الإنسان من الداخل، ومراعاة ظروفه الإجتماعية، ومدى إرتباطه بالزمان والمكان. فالأدب هو المدخل لبناء إنسانٍ ومجتمعٍ جديد متصالح. فقبل التفكير بالتّخلص من حاكم مستبد، لا بدّ للإنسان أن يتخلص ممّا يستبّد به من عاداتٍ سيئةٍ وتقاليدٍ سوداء.

المرأة هي ذلك الكائن الذي يحقّق التّوازن البشريّ مع الرّجل في المسيرة الإنسانيّة. كذلك هي الكائن الذّي إنشطر عن الإنسان الواحد ثمّ إزدوج بفعل الثنائيّة، ليخوض تجربة اللحم والدّم تمهيداً للعودة إلى الأحديّة (شعبان، صفحة 272). هذه الطّروحات والأفكار متعلّقة بنصف البشرية، وما زالت المجتمعات العربيّة حتّى اليوم تعاني منها. إنّ الباحث في أدب ناسك الشّخروب يلاحظ فكرة أساسيّة تتردّد في كتاباته وهي بحث الإنسان عن الغاية من وجوده. "فغاية الإنسان من وجوده واحدة لا تقبل الشّرك من أيّ نوع كان. ألا وهي تمزيق دثار الحسّ لتظهر الصّورة بتمامها، فيرتفع الإنسان إلى ما فوق الخير والشّرّ. وإذ ذاك فما الزّمان بعقوده، والمكان بحدوده، والموت بظلماته، والولادة بأشّعتها، وكلّ ما يتخلّل ذلك من أنين وحنين، وذعر وطمأنينة، وقلق وسكينة، سوى مساحيق وعقاقير سحريّة تعدّها لنا الحياة لتجلو بها صورة الله فينا." (نعيم م.، البيادر، صفحة 505) من أجل بناء مجتمعات صحيحة. لذلك فإنّ الباحثين قبلنا إنشغلوا بدراسة مؤلّفات نعيمة من الزّوايا الفكريّة والفلسفيّة والصّوفيّة والفنيّة من غير الإنتباه إلى نعيمة مصلحاً إجتماعياً. ففي هذا البحث، سيتم تناول نظرة نعيمة إلى دور المرأة في بناء الإنسان أولاً وصولاً إلى بناء المجتمع. إضافة الى دورها كشريك مؤسس لدورة الحياة. فالمرأة في نتاج نعيمة تتعدى كونها فرداً محدوداً لتصل درجة اللامحدود في المحبة والمعرفة والشريك المؤثر.

1- علاقة المرأة مع الرجل

علاقة المرأة مع الرجل: رصد المتواتر والمتكرّر والمتماثل وإظهارها لتظهر لنا أنّ نعيمة مصلحٌ إجتماعي. من هي الزوجة في أدب نعيمة؟ هل كانت علاقة الزوجة مع زوجها علاقة ناجحة على المستوى الشّخصيّ والعائليّ والإجتماعيّ؟ ولا بدّ أيضاً من التّساؤل في هذا الفصل عن نظرة ن عيمةإلى العلاقة الجسديّة بين الرّجل والمرأة. ما كان موقفه من العلاقة الجسديّة ومن العلاقة الرّوحيّة؟

أولاً: الحبيبة :تتمحور الحبيبة حول ما يأتي: الأمل، المطهر، والكمال.

أ- الأمل

نعني بالأمل، أن تساهم الحبيبة في زرع الأمل في حياة حبيبها، أو في إعادة الأمل إليه بعد يأس طويل. وفي هذا السيّاق، نتوقّف عند الحبيبة في مسرحيّة الآباء والبنون، وتحديداً عند شخصيّة شهيدة في علاقتها مع إلياس. هو رأى في الحياة فراغاً وبشاعة، ويئس من مرارة الحياة وشبع من علقمها فصمّم على الإنتحار. أمّا شهيدة، فتغبّط نفسها على وجودها في العالم وتشكر خالقها كلّ ساعة من أعماق قلبها. هي لا تتوقّف عند آلام النّفس وأوجاع القلب، بل تقبل على أوجاع الحياة لأنّها ترى سعادة فيها.

فاليأس يمثّله إلياس، والأمل تمثّله شهيدة التّي نجحت في إضاءة قبسٍ من النّور في حياة إلياس، فتسنّى له أن يُبصر جمال الحياة ليستمتع بآلامها وأفراحها وسعادتها وشقائها. فقد وجد في حبيبته أملاً بعد ليل يأسٍ كاد يقوده إلى الموت إنتحاراً. إعترف إلياس لشهيدة في نهاية المسرحيّة قائلاً: "أنتِ لي الكلّ بالكلّ في هذا العالم. شهيدة! كنتُ أعمى فأبصرت. وحبّك كان النور في عيني. شهيدة! ما أجمل الحياة"! (نعيمة م.، الآباء والبنون، الصفحات 248-249).

ب- المطهر

ونعني بالمطهر، المكان حيث يتطهّر الإنسان من أدرانه، جسديّة كانت أم نفسيّة. وقد رمزت الحبيبة في أدب نعيمة إلى ذلك المطهر. فحبيبة شورتي في أقصوصة "شورتي"، صاحبة صفات لا يستوعبها إسم، لذلك هي بلا إسم لأنّها أرفع من أن تُسمّى، وأجلّ من أن توصف (نعيمة م.، كان ما كان، صفحة 382). لذلك نجدها ترتفع بمحبوبها إلى ما فوق حدود الزّمان والمكان، فتشعره بإنسانيّته، وتدفعه إلى تحليل خبايا روحه، وإلى محاسبة نفسه أدقّ الحساب، وكأنّه في المطهر. فنسمعه يعترف بالجرائم الكثيرة التي إقترفها على جبهات القتال. حمل شورتي بين ضلوعه قلباً ملتهباً وشرايين مشتعلة، لكنّه لم يجد قلباً نظير قلبه ليصبّ فيه نار حبّه ولهيب أشواقه. فحلّت ساحات القتال وجرائم الحرب مكان القلب الضّائع. ثمّ تراءت له الحبيبة في المنام فأدرك أنّ القلب الّذي يبحث عنه، والرّوح التي كان ينشدها هما حقيقتان لا خيالان. يرفض الإقتراب منها ما دامت نفسه تحمل أدران البغض والنّقمة. كذلك هو يرفض أن يدنّس طهارتها بقذارته. لذلك لم يبقَ أمامه من خيار سوى أن يطهّر قلبه وروحه وجسمه لكي يصبح أهلاً لموقد الحبّ الحقيقيّ الّذي يرتفع به إلى عالم بعيد عن البغض والإستبداد والظّلم والبربريّة. إختار شورتي مطّهره بنفسه لكي يتسنّى له أن يليق بحبيبته. بها عرف الحياة، ومن أجلها إحترق وتطهّر، ولها قدّم روحه بعد أن نقّاها من أدران العالم السّفليّ، ليرتفع بها إلى العالم العلويّ.

أمّا شخصيّة بهاء في رواية لقاء، فهي الفتاة الّتي ألهبت مشاعر ليوناردو منذ عقودٍ من السّنين، وبقي يعمل خلال حياته المتعدّدة على تطهير روحه من أدران الزّمان والمكان ليتمّ اللقاء بينه وبينها، خالياً

من أيّ عيب. ولم تسعَ بهاء إلى الاختلاء بليوناردو كما فعلت في عمرها السّابق. هي طلبت منه فقط أن يعزف لها لحن اللقاء، لتتأكّد أنّ اللحن صافٍ لا تشوبه شهوة كما حصل من قبل. كانت بهاء مستعدّة للانعتاق "ولكنّ انعتاقها منوط بانعتاق ليوناردو، لكي تصبح وإيّاه الإنسان المكتمِل الموحدّ. فقد إنشطرت عنه، وتقمّصت جسداً، وبإنسلاخها عنه إفتقر مرحليّاً إلى بعض ذاته، وبعضه هذا إرتقى في سلّم الرّوح، وتأثّر بسحر الحياة أكثر من تأثّره هو به. وبما أنّ بهاء مرتبطة بليوناردو فسوف يحكم عليها بالعودة إلى قيود الجسد والمكان والزّمان لتعيش عمراً آخر في غربة عن الحياة الّتي سحرتها (بولس، 1985، الصفحات 85-86) ".

ونصل إلى شخصيّة الأرقش في كتاب مذكّرات الأرقش. فما إن تكشف المذكّرات عن نفسها، حتّى نتعرّف على الوجه الحميم لشكيب، وإلى صمته العميق وإنسلاخه الكامل عن إضطراب العالم الخارجيّ، كما نشهد معركة من أعنف المعارك الّتي يمكن أن تعرفها نفسٌ إنسانيّة. إنّها معركة بين ألوهيّة الأرقش الّتي تكافح وتناضل لترفعه إلى درجة الصّوفيّة والكمال الرّوحيّ، وبين ناسوت الأرقش المكبّل بسلاسل أرضيّة متشابكة مع أهواء العالم تشابكاً يصعب التّخلّص منه. أمّا نجلا، حبيبة الأقرش وعروسه، فهي الّتي أشعلت نيران المعركة في كيانه، فكانت مطهّره. "أنا أرقشان"، هكذا وصف الأرقش نفسه. "واحد إنسحب من حلقة البشر والتّحف بالسّكوت ليتّصل بالعالم الأعلى ويسير معه. وآخر إنحجب عن البشر بستار من الأسرار البشريّة، وهو يحاول تمزيق السّتار ليعود إلى حظيرة البشر. فهو من العالم الأدنى ويتوق إلى العالم الأدنى. كأنّ بينه وبين هذا العالم حسابات قديمة لا بدّ من تصفيتها (نعيمة م.، مذكرات الأرقش، صفحة 391)". أيقظت حبيبة الأرقش في روحه الإحساس بالعطش والجوع إلى ذلك المطلق الأبعد من حدود الحواس. أوَليس العطش دليلاً على وجود الماء؟ أوَليس الجوع دليلاً على وجود الطعام؟ فالرّيّ والشّبع إذاً موجودان طالما العطش والجوع يستبدّان بالجسد البشريّ. وهذا ينطبق أيضاً على جوع الإنسان الرّوحيّ إلى المطلق، إلى الله. فالإنسان بروحه قبس إلهيّ تغرّب عن مصدره العلويّ. والأرقش وعى من خلال حبّه لنجلا أنّه فيضٌ إلهيٌّ إكتنفه عالم الزّمان والمكان. "إنّه نهرٌ إلهيّ متجمّد. وهو إن لم يعمل على تحطيم الجليد والفكاك من قيوده الدنّيويّة، ظلّ بعيداً عن نفسه وأسير "الغربة العظمى" (نعيمة ن.، صفحة 34). ويصحّ القول إنّ حبيبة الأرقش المذبوحة قد جعلته يعي غربته الرّوحيّة، أو غربة ذاته الصّغرى عن الذّات الكبرى.

"أنا بين تلك وهذه، أرقشٌ يعرف نفسه، وأرقشٌ يجهلها فيسأل: "من أنا؟" وكأنّ الأرقش الثّاني قد أفاق، أو يوشك أن يفيق من سبات عميق. فهو يودّ أن يعرف من أين جاء ليعود من حيث جاء. الحرب سجال، فأيّ الأرقشين يغلب؟" (نعيمة م.، مذكرات الأرقش، الصفحات 391-392). تلك الحرب الّتي تكلّم عنها الأرقش ظهرت معالمها في مذكّراته إلى أن قرّر ذات يوم أن يكتب وصيته. هو الّذي لم يملك من

متاع الأرض غير قلمه ومحبرته وثيابه وجسمه. فأوصى بقلمه للّنار، ومحبرته للبحر، وثيابه للعثّ، وعينه وأذنه وأمعائه للدّود. وقبل أن يوصي بقلبه أيضاً للدّود، خاطبه خطاباً مؤثّراً، ذلك أنّ القلب هو تلك الكتلة الجامعة بين الرّوح والمادّة. وقلب الأرقش هو مزيج من الحبّ والحياة والموت:

وأنتَ يا قلب–

يا قلب يا قلب––

يا قلب يا قلب يا قلب–––

يا نبضة الخالق في المخلوق،

يا مجمع الآزال والآباد،

يا مركب الأحزان والأفراح،

يا فوّارة الأنوار والظّلمات،

يا مرخم الهمّ والألم...،

يا عابداً إلحاده صلاة وصلاته إلحاد،

يا ناسكاً في صدر ناسك،

يا قلب يا قلب يا قلب–––" (نعيمة م.، مذكرات الأرقش، الصفحات 409–411)

فالحبيبة في مذكّرات الأرقش، هي المطهّر الّذي علّم الأرقش مهارة البحث عن حقيقة الحياة وعن الحرّيّة والمعرفة.

ج– الكمال:

وتعني الحبيبة في أدب نعيمة الكمال. أي حين يتعدّى الحبّ الأبعاد الجسديّة والجنسيّة ليصبح منفذاً يطلّ منه الإنسان إلى أسرار الوجود. بالحبّ تتماسك جميع الكائنات، وبه تحيا، وبدونه لا معنى لوجودها. الحبّ إذاً، هو الخيط الخفيّ الّذي لا يعرف بداية ولا نهاية. وقد خاطب نعيمة في كتاب سبعون هكذا:

" أيّها الحبّ أنتَ البداية الّتي فيها كلّ بداية، والنّهاية الّتي إليها كلّ نهاية

أنتَ السّحر والسّاحر.

أنتَ الخالق وأنتَ الخليقة

أنتَ الكلّ في الكلّ.

فالمجد لكَ." (نعيمة م.، سبعون، صفحة 464)

ولأنّ الحبّ إتّخذ عند نعيمة أحياناً منحىً صوفيّاً، فلا عجب أن نراه يستبدل كلمة المحبّة بالحبّ في بعض الأحيان. فمرداد رأى أنّ المحبّة هي "ناموس الله"، وما حيي البشر إلّا ليعرفوها، وأنّهم ما أحّبوا

إلا ليعرفوا الحياة. والمحبّة ليست إلّا إندماج "المحبّ بمحبوبه فيصبح الإثنان واحداً" (نعيمة م.، مرداد، صفحة 633). كذلك فالمحبّة مغفرة (نعيمة م.، كرم على درب، صفحة 610)، والمحبّة أُلفة تربط كلّ ما في الكون، لا يدنو الفساد من شيء إلّا متى حلّ بين أجزائه تنافر". فأجسادنا ما كانت لتتحلّ لولا عناصر متنافرة تفكّك ما فيها من روابط المحبة. فالمحبّة تقرّب المسافات بين البشر، وتنشر السلام والألفة. وإذ يذوب الحبّ عند نعيمة في المحبّة، كذلك تذوب المخلوقات في الخالق في إنسجام ووحدة تامّين. أوَليس الحبّ هو ذلك المفتاح الذي يُفضي إلى "قدس أقداس السّعادة التي ينشدها الكلّ"؟ فالحب يصير عند نعيمة المصعد العجيب الّذي يقرّب الإنسان من الله لأنّ له القدرة على جلو بصائرنا وأبصارنا لنصير مرآة تعكس حقيقة المحبوب الّتي تتجاوز حدود اللّحم والدّم لتصير كياناً يكمّل كياننا.

وحين يحيا الإنسان حياة فكريّة بحتة، لا مكان فيها لشكوى القلب ولوعته، يتوق قلبه إلى الإلتهاب بحبّ قلب رفيق، وحين يحظى القلب بالرّفيق، تراه يتذوّق نشوة الشّعور بالحبّ، فيستفيق من سباته ويتسلّم أعّنة الحياة. وهذا ما حصل للقلب بعد أن استأثر العقل والفكر بالكيان لسنين طويلة. يخاطب نعيمة قلبه قائلا:

أقلبي احكم ولا ترهبْ
فما لي منكَ من مهرب
فأنتَ اليوم سلطاني
وأنتَ اليوم ربّاني
أدرني كيفما ترغب". (نعيمة م.، النور والديجور، صفحة 556)

والحبّ عند نعيمة أبقى من ثنائيّات الحياة الّتي تقضي على نفسها بنفسها. فكم من قلبٍ إنتهت به البهجة إلى وحشة، والأمل إلى خيبة، واللّذة إلى أمل. وحده الحبّ عند نعيمة "يملك القدرة على قهر الزّمان والمكان، وعلى الثّبات في وجه شتّى التّيارات؛ إنّه وحده الّذي لا يُكال بمكيال، ولا يوزن بميزان".

ورفيق القلب شريك في نعمة الحياة وشقائها، وفي رخائها وشدّتها، وفي إيمانها وكفرها، وفي طهارتها ودنسها. وعندما يستبدّ به السّؤال، يستنجد بالفكر، يحلّل له ما حرّمته التّقاليد والشّرائع. ويروح القلب يخاطب رفيقه في الحبّ.

"يا رفيقي، رفيق جسمي وروحي،
وشريكي في نعمتي وشقائي،
قل رأينا طهارة وجمالاً،
لا فساداً في صنع ربّ السّماء،
فأبحنا للنّفس كلّ مناها،

وتركنا الحرام للفقهاء". (نعيمة م.، همس الجفون، الصفحات 73-74)

والحبّ حين يجمع قلبين فيتحابّان ويتّحدان، فهذا دليل على أنّ إتّصالهما قد حصل في ضمير الله قبل أن يتحوّلا إلى كتلةٍ من لحم ودم. فالحبّ ساحر يفوق سحره أيّ سحرٍ آخر، إذ يحوّل الطّاقات السّلبيّة إلى طاقات إجابيّة، كما يحوّل الإنسان من سليل لآدم إلى فرخ إله. فالحبّ هو "الكيان المتمم لكياننا. هو الحياة في حياتنا، والرّجاء في رجائنا، والإيمان في إيماننا، به نكتمل ونخلص، وبدونه نبقى ناقصين ونهلك، به نحيا، وبدونه نموت، به الوجود حلاوة وهناءة، وبدونه حسم وحنظل" (نعيمة م.، النور والديجور، صفحة 557). والحبيبة عند نعيمة تؤالف بين الفكر والعقل، لأنّ الحبّ الّذي تزرعه في كيان الشّاعر يسكّن صراع الثنائيّات. بالحبّ يستطيع نعيمة أن يتغلّب على وجع الثنائيّة، وعلى شقاء البحث عن المعرفة. والبحث عن المعرفة يكون عن طريق الفكر الّذي يعذّب صاحبه من غير أن يدلّه على الطّريق. لهذا السّبب يضيق الشّاعر ذرعاً بأفكاره، فيتمنى لو يكون ضريراً:

بربّكِ، أفكاري، دعيني سابحاً
ببحر وجودي–دودةً بين الأسماك
ضريراً، أصمّاً، أبكماً، متجلبباً
بجهلي وضعفي،دون علمٍ وإدراك". (نعيمة م.، همس الجفون، صفحة 47)

فالحبّ إذاً هو موازٍ لنكران الذّات. ونكران الذّات لا بدّ أن يؤدّي بصاحبه إلى تذوّق جمال الحبّ الإلهيّ الزّاخر الذي لا ينضب ولا يستكين لأنّه نور متصاعد لا تعتريه الظّلمة. وقد ورد على لسان الشّيخين في كتاب مرداد أنّ الحبّ قادر على كشف الحقيقة، لذلك هما يردّدان:

" الحب لا يعرّى
والنّور لا يُعار
أحببْ ترَ ما لا يُرى
أنرْ وسرْ أنّى تشاء". (نعيمة م.، مرداد، صفحة 564)

تحوّلت الحبيبة في أدب نعيمة إلى درب الكمال. فهي الّتي تقود حبيبها نحو فكّ رموز الطّبيعة والكون والإتّحاد بالوجود والاكتمال به.

ثانياً: الزّوجة

الزّواج، بحسب شرائع النّاس يحلّل الإرتباط الجسديّ والرّوحيّ بين المرأة والرّجل. والمرأة الزّوجة هي الوحيدة من بين النّساء الحبيبات والخطيبات والعشيقات المؤهّلة شرعاً أن تصبح أمّاً. ويغدو الزّواج من هذا المنطلق، في نظر المجتمع، وسيلة لتجديد النّسل وعاملاً مهمّاً لإستمرارية الحياة. ومن سرّ الزّواج، ينبثق سرّ آخر هو سرّ الولادة.

أمّا غاية الزّواج في نظر نعيمة فليست فقط تجديد النّسل. الزّواج حافز قويّ للرّجل والمرأة معاً للتّفتيش عن المعرفة الكاملة. ولا يحقّ لهما بتاتاً أن ينسيا أنّ الزّواج "هو الرّباط الوثيق الّذي ربطت به الطّبيعة الرّجل والمرأة كيلا يغرب عن بالهما أنّهما شطران متساويان لكائن واحد هو الإنسان. وهو القنطرة الّتي تصل الأعمار بالأعمار كيما يكون للإنسان متّسع من الزّمان للوصول إلى المعرفة الّتي يستحيل عليه الوصول إليها في عمر واحد" (نعيمة م.، النور والديجور، صفحة 586). فتجديد النّسل إذاً هو مهمّة من إحدى المهمّات التي يقوم بها الإنسان بشطريه المرأة والرّجل في سبيل استمراريّة الحياة، وفي سبيل الوصول إلى الأحديّة إنطلاقاً من الإزدواجيّة، والزواج فرعٌ منها (أبو جهجه، صفحة 37).

ولو عدنا إلى كتاب مرداد، مؤلّف نعيمة الأمّ، لتبيّن لنا أن محبّة الرّجل للمرأة ومحبّة المرأة للرجل ليست بالمحبّة الكاملة. فإلى أن يصبح كلّ رجل حبيب كلّ امرأة، وإلى أن تصبح كلّ امرأة حبيبة كلّ رجل، تبقى تلك المحبّة ناقصة (نعيمة م.، مرداد، صفحة 635). فكيف إذا تكلمنا على الزّوج والزّوجة؟ ثمّ إنّ "محبّة الرّجل للمرأة، ومحبّة المرأة للرّجل ليست من الصّفاء والشّمول بحيث تستحقّ إسم المحبة. فهي في الغالب، ثورة في اللحم والدّم تؤججها شهوة التّمتّع والتّملّك والأثرة، وتلازمها أكدار كثيرة أبرزها الشكّ والغيرة وصراع مستمرّ بين أنانيّتين جاهلتين لا تتزحزح الواحدة فيه من أمام الأخرى قيد أنملة" (نعيمة م.، يا بن آدم، صفحة 48).

أ- الأنانيّة

نعني بالأنانيّة شهوة التّمتّع والتّملّك والأثرة. فالزّوجة الأنانيّة في أدب نعيمة، تركّزت أنانيّتها علي الأمور الآتية:

المال-الذّهب-الجاه والشّهرة- السّلطة.

ولعلّ شهوة المال هي من أخطر الشّهوات الّتي تستبدّ بالزوّجة عند نعيمة. فقد أعمى المال بصر زوجة الأستاذ وبصيرتها في أقصوصة "أكابر"، فلم يعد لوجود الآخر معنى عندها. ففي شرعها أنّ أبناء الجبال "يعيشون في الصّيف كالذّئاب، وفي الشّتاء كالدّببة" (نعيمة م.، أكابر، صفحة 398). كذلك فقد عدّت أنّ البحبوحة الّتي تعيشها، تخوّلها أن تتحّكم بمصير الفقراء كعائلة أبي رشيد. لذلك، شبّهتهم بالحيوانات المفترسة، ثمّ رفضت الجلوس إلى مائدتهم. ثمّ أمرت أبا رشيد بنقل الجدي والدّيك، وهما صديقا رشيد في خلوته الجبليّة، إلى السّيّارة لأنّ ابنتها" نونو" طلبت ذلك. والأنانيّة عينها، دفعت بزوجة بركات إلى أن تنفق جائزة الخمسين ألف مع ما يتماشى مع متطلّباتها الدّنيويّة. وإستبدّ بها حبّ المال والسّلطان، فباتت مأخوذة ببريق المال الكاذب. "ليس من شكّ في أنّ للمال قوّة قلّما تدانيها أخرى في التّعمير والتّخريب، والبطش والتّهويل، وبسط النّفوذ على الآخرين" (نعيمة م.، الأوثان، صفحة 544).

ب- الصّدق

المقصود بالصّدق، حين تكون الزّوجة صادقة مع نفسها، مع زوجها، ومع العالم. فمن شأن هذا الصّدق أن يقرّبها من المعرفة الّتي هي طريق الخلاص. تمثّل جميلة البشتاوي في أقصوصة "العاقر"، نموذج المرأة الصّادقة. ولعلّ إنتحارها هو الدّليل الصّارخ على صدق هذه المرأة مع نفسها ومع زوجها ومع الحياة. وحين إنفردت نفسها بنفسها لأوّل مرّة في حياتها، "إعتراها رعب عندما أخذت تحلّل ذاتها بذاتها وترفع السّتار رويداً رويداّ عن أشياء داخليّة كانت تشعر بها ولا تعرف معناها. لأوّل مرّة في حياتها سألت نفسها ما عسى أن يعني كلّ هذا: صباها وشبابها وزواجها وظمأ روحها الدائم، وسعادة لم تكاد تلمسها حتّى تقلّصت من يديها واختفت إلى الأبد، وأنين قلبها الّذي لا يبطل، كأنّ حيّة تقرض أوصاله" (نعيمة م.، كان ما كان، الصفحات 349–350). وعت جميلة شوقاً دفيناً وظمأً عميقاً يشدّانها إلى المعرفة. ولكنّ هوّة عظيمة من الكذب فصلت بينها وبين مجتمعها من جهة، وبينها وبين نفسها وزوجها من جهة أخرى. وبما أنّها امرأة صادقة، هالها أن تكون حياتها شهادة كذب، فقتلت نفسها، وتخلّصت من عذابها.

2- صفات المرأة في المجتمع

المرأة بين الفتنة والسّلام. من هي المرأة الّتي تزرع الفتنة أو تسبّبها؟ وكيف بدت المرأة الّتي تنشر السّلام؟ وكيف تمارس هذا السّلام مع نفسها ومع الآخر؟ وما هي سمات الفتنة وسمات السّلام عند المرأة في أدب نعيمة؟ وما تأثيرها في العائلة والمجتمع؟ والمرأة بين الفساد والصّلاح. ما هي سمات الفساد؟ وما تأثيرها على الفرد والعائلة والمجتمع؟ ما هو الصّلاح؟ من هي المرأة الصّالحة في نتاج نعيمة؟ وما تأثيرها على العائلة والمجتمع؟

أولاً: المرأة بين الفتنة والسّلام

الفتنة تعني في المعجم القتل (ابن منظور، لسان العرب، الصفحات 89–90). وكلّنا على يقين بأنّ القتل لا ينحصر بقتل الجسد فقط، فقتل النّفس هو أشدّ وطأةً على الإنسان. أمّا كلمة السّلام فتعني البراءة من العيوب (ابن منظور، المجموعة الكاملة، الصفحات 325–326). ولعلّ عيب الإنسان الأكبر هو الجهل. ولكي يتخلص من ذلك العيب، عليه اللجوء إلى الحرب لمقاتلة الجهل والخوف والكفر والألم والموت. تلك الحرب هي من أجمل الحروب على الإطلاق، إذ "تتجنّد لها البشريّة بأسرها، بكلّ ما فيها من قوى لا تحُدّ، وغنى لا يوصف. فتمشي جحافلاً، وقلوباً تساند قلوباً، وأفكاراً تناصر أفكاراً، وأرواحاً تؤازر أرواحاً، وعضلات تشد عضلات، إلى أوجار الجهل فتمحوها، وحصون الخوف فتدكّها، ومغاور الكفر فتمحقها، ومعاقل الألم فتقوّضها، وبذور الموت فتفنيها" (نعيمة م.، البيادر، صفحة 517). من بين النّساء في أدب نعيمة من كنّ سبباً في إشعال الفتنة على صعيد العائلة أو المجتمع أو الوطن. ومنهنّ من لعبن دوراً مزدوجاً، فكنّ حيناً سبباً لفتنة، وحيناً آخر أداة سلام. ومنهنّ من كنّ دائماً مسبّبات للسّلام.

يتوقّف الباحث في أقصوصة "عتاب" عند التّأثير السلبيّ لزوجة الشّاعر على عائلتها، ولا سيّما أنّها نجحت في إشعال نار الفتنة بين أفراد العائلة. وما لبثت أن إزدادت النّار إستعاراً مع تدخّل الصّبيان. وانتقلت الحمم الحرّاقة إلى نفس الشّاعر وكيانه لتنعكس في تصرّفه العدائيّ تجاه زوجه. فقد سبّب عناد الزّوجة غضباً عارماً وحرباً أليمة. أدّى الفستان الأحمر إلى خلاف، فشجار، فبكاء، فتحرّق، فندب، فألم ، فجحيم، فنوم، فحلم محموم، فندم، فعودة إلى البيت، فغضب، فصياح، فلطم. إختارت الزّوجة طريق الفتنة، وهذا ما أنتج شجاراً، وحرباً، وعنفاً كلاميّاً وجسديّاً.

ونتوقّف عند شخصيّة شهيدة في مسرحيّة الآباء والبنون. هي لم تظهر كثيراً في المسرحيّة، ولكنّ الأمر اللافت في تلك المرأة هو أنّ وجودها ودورها أثّرا بشكل إيجابيّ وبنّاء على سير الأحداث. حملت معها أينما حلت ملامح سلام وأمان. فقد شجّعت إلياس على مواجهة الحياة والإستمتاع بها. فخاطبته قائلةً: "أنا أغبّط نفسي على وجودي في هذا العالم، وأشكر خالقي من أعماق قلبي. إن أمراض الجسد وآلام النّفس وأوجاع القلب تمرّ في حياتي كسحابة صيف. الحياة جميلة، والذين لا يرون هذا الجمال، يجب أن يُبحث عن السّبب في نفوسهم. ما ضرّ الشّمس لو شتمها الأعمى؟" (نعيمة م.، الآباء والبنون، صفحة 179). ويكشف الحوار الّذي دار بينها وبين إلياس عن خفايا روحها الطّيّبة، ونفسها المسالمة. فهي تعطي من أجل العطاء، وسعادتها تتحقّق من خلال سعادة الآخرين. هناؤها تستمده من بسمة الآخر. لذلك، فهي ترحّب بشهد الحياة، وتتقبّل علقمها طمعاً بشهدها. وقد طبّقت فلسفتها فعلاً في المسرحية، فسهرت على زينة بعد محاولتها الإنتحار، وبقيت قربها ليلاً نهاراً حتّى تعافت كليّاً.

وصفوة القول أنّ نعيمة أراد من خلال هذه النّماذج أن يقول للمرأة إنّها قادرة على التّأثير الكبير على الفرد وعلى المجتمع معاً. فهي نصف الإنسانيّة الآخر الّذي بمستطاعه أن يلوّن الإنسانيّة إمّا بألوان قاتمة تنذر بالفتنة والألم والموت والفناء، وإمّا بألوان زاهية تبشّر بالسّلام والهناء والبقاء.

ثانياً: ألمرأة بين الصّلاح والفساد

تعرّف المعاجم الفساد بأنّه نقيض الصّلاح (ابن منظور، لسان العرب، صفحة 128)، كما تُعرّف الصّلاح بأنّه نقيض الفساد. أمّا نعيمة، فله تعريف خاصّ للصّلاح، و"هو أن يعمل الإنسان لغيره كما لو كان يعمل لنفسه" (نعيمة م.، دروب، صفحة 151). فالحياة تفرض على الإنسان أن يكون صالحاً كما تفرض ذلك على جماعات النّحل والنّمل غيرها من الكائنات الأخرى الّتي لا حياة لها من دون التّعاون في ما بينها (نعيمة م.، دروب، 1954، صفحة 151). صفات من نوع الجشع والغرور وإحتقار الآخر، هذه جميعها نجدها في شخصيّة زوجة بركات في أقصوصة "ذنب الحمار". عاشت تلك المرأة حياتها زوجة حمّار، ولم تتذمّر إلّا حين ربح زوجها ورقة اليانصيب. فباتت تخجل بمهنته. وحين كثرت الدّيون عليهما

رفضت بيع السّيّارة بحجّة أنّها تؤثر ألف مرّة أن تموت جوعاً على أن تعيش زوجة حمّار. وحين إقترح زوجها طريقة منطقيّة وعقليّة سليمة لإستثمار المال، رفضتها جملة وتفصيلاً لأنّها كانت تصرّ على بناء بيت جديد، وعلى شراء سيّارة. يلفتنا في هذا السّياق، إصرار هذه المرأة على التّشبّه بالمدنيّة الزّائفة والدّليل أنّ السّيّارة هي أقصى ما طمحت على إبقائه، لأنّها ترمز إلى الجاه والمجد والعظمة. وهذه إشارة إلى "المدنيّة الغربيّة الّتي تغرق إنسان اليوم ومجتمعه، ولا سيّما المجتمعات الشّرقيّة في الرّغوة دون الجوهر" (سليم، صفحة 272).

ومن جهة أخرى، تستوقفنا شخصيّة ثريّا في الأقصوصة "ثائران". وهي المرأة الّتي رفضت أن تكون خطيبة إنسان فاسد يحتقر بماله النّاس الأقلّ حظوةً منه. وقد حتّمت عليها أخلاقها العالية أن ترفض مبدأ الظّلم والنّتن والفساد، فهجرت خطيبها وألّفت مع فؤاد، زوجها، خليّة ثوريّة تكافح ضدّ الظّلم والفساد. وهذه إشارة أخرى إلى تناول نعيمة مسألة المرأة الصّالحة، والمرأة الفاسدة في أدبه، لأنه ينصرف بذلك إلى خدمة مجتمعه. وإنّه بانصرافه إلى تصوير فساد المرأة، وصلاحها، "ينصرف إلى خدمة المجتمع والحياة على حدّ سواء" (الأشتر، صفحة 128). وما خلقه لنماذج منحرفة الشخصيّة، كفريد صرصور، سوى إنذار للمرأة بالإبتعاد عن الفساد، والإنكباب على إصلاح المجتمع.

الصّلاح إذاً شرط أساسيّ في بناء الإنسان وفي هندسة حياته. ومن المستحيل أن يقضي الإنسان على الفساد في الأرض قبل أن يحاربه في نفسه. فإصلاح المجتمعات والأوطان، يبدأ بإصلاح النّفس أوّلاً. لذلك فالمرأة مسؤولة عن إصلاح نفسها أولاً ليكون بمستطاعها أن تصلح شريكها الرّجل، والمجتمع والوطن.

نظرة نعيمة إلى المجتمع، ولا سيّما إلى المدنيّة في المجتمعات الحديثة، بكلّ عناصرها الإقتصاديّة والإجتماعيّة والعلميّة، نظرة وسيلة لا غاية، ويبقى الإنسان القطب والغاية. لهذا السّبب، نقل إلينا نماذج عديدة عن المرأة الفاسدة، بكلّ وجوهها المتطرّفة إلى درجة الإجرام. وهذا يدلّ على عقيدة نعيمة الإنسانيّة، وعلى إصراره على تحميل المرأة مسؤوليّة الإصلاح والتّغيير في المجتمعات. هو لم يلجأ إلى الأسلوب الإيعازيّ الإرشادي، بل إختار نقل صورة الفساد بكلّ ملامحها القاتمة، لكي تتعظ المرأة وتتّخذ درب الصّلاح والإصلاح سبيلاً في حياتها اليوميّة.

3- المرأة والمصير الإنساني

سنتناول مسألة الحياة والموت. فكيف نظرت المرأة في أدب نعيمة إلى الحياة والموت؟ وهل من تآلف في كلٍّ من الحياة والموت؟ إذ من العبث أن يظنّ الإنسان أنّ وجوده في هذه الحياة لا يحمل غاية معيّنة. فهل توقّفت المرأة في أدب نعيمة عند هذه الإشكاليّة؟

من المهمّ الإشارة في هذا السّياق إلى أنّ الكون كلّه في الإنسان، وكلّ الإنسان في الكون. ثمّ إنّ الكون جسد واحد. فما لمسنا أقلّ أجزائه، على حدّ قول مرداد، إلّا لمسناه بكاملها (نعيمة م.، مرداد، صفحة 683). يقول مرداد متوجّهاً بالكلام إلى رفاقه: "ومثلما تموتون موتاً مستمرّاً وأنتم أحياء، كذلك تحيون حياةً مستمرّة وأنتم أموات، إن لم يكن في هذا الجسد، ففي جسد شكله غير هذا. لكنّكم لا تنفكّون تحيون في جسد ما إلى أن تتلاشوا في الله" (نعيمة م.، مرداد، صفحة 683). فهل آمنت المرأة في نتاج نعيمة بالمصير الذّي تكلم عليه مرداد؟ وإلى أيّ حدّ تداخلت مع الكون فكانت فيه وكان فيها؟

ومن المعلوم أنّ الإنسان يولد بالآلام، يحيا بالآلام ويرحل حاملاً أيّاها. وإنّ المرأة في نتاج نعيمة الأدبيّ، ولا سيّما نجلا وبهاء، هي ألتي جعلت الألم معلّماً عظيماً للأرقش ولليوناردو. فالأرقش ربط الألم بالجهل. فحيث الجهل يوجد الألم. "فالألم هو النّذير والبشير، وهو المعلّم والمقوّم لقومٍ يعقلون" (نعيمة م.، مذكرات الأرقش، صفحة 398). أمّا ليوناردو، فقد عبّر عن وجعه وألمه من خلال كمنجته الّتي بثّها لواعج قلبه وفكره. فكان اللّحن وسيلة التّخاطب بين روحه وروح بهاء. فاللّحن جعلها تستسلم لإغفاءة طويلة، لم تستفق منها إلّا من خلال لحن جديد مصفّى من الشّهوة والأدران. خاطب ليوناردو بكمنجته عقل بهاء وقلبها، "وبلغ من لحنه فترة راحت فيها الكمنجة تعاتب، وتشكو، وتستغيث، وتنوح".

لولا الحياة لما إنكشفت للمرأة أمور كثيرة، ولما تسنّى لها أن تكشف للرّجل أموراً عظيمة أيضاً. لعلّ أجلّها وأعظمها الإنسان بقواه الهائلة الّتي تتّحد في نهاية المطاف لتكوّن وحدة شاملة توّلد الخلق والإبداع. وقد أنارت المرأة بموتها درب الرّجل ليبحث عن سرّ الموت. لذلك فالموت الّذي نحياه كل ثانية من حياتنا، هو مظهر من مظاهر التّجدّد وهو درب من دروب الحياة الكثيرة والمتعدّدة. وهو ليس نهاية، وهو كالحياة لا بداية له ولا نهاية. فإذا تآلفت الثّنائيّات الضّروريّة في الحياة، فلمَ لا يتآلف الموت والحياة وهما توأمان؟ (ملحس، صفحة 115).

فموت المرأة في نتاج نعيمة هو مصدر من المصادر المعرفيّة الّتي تزوّد بها الرّجل. ولما كان هدف الإنسان الموحّد المؤالفة بين الموت والحياة، فإنّ الإنسان لم يُخلق ليموت. وتالياً، فالموت هو نقيض الولادة، وليس نقيض الحياة. وقد عبّر نعيمة عن هذه الفكرة في همس الجفون:

"وعندما الموت يدنو واللحد يفغر فاهْ

أغمض جفونك تُبصر في اللّحد مهد الحياهْ" (نعيمة م.، همس الجفون، صفحة 9)

الموت إذاً ليس نهاية، بل بداية جديدة. وأن يحبّ الإنسان الحياة ويكره الموت، يعني أنّه لم يحسن محبّة الحياة، وتالياً، فهو يجهل معنى الحياة والموت. "ما كان الموت نكبة لو لم يجعل الإنسان من حياته نكبة" (نعيمة م.، زاد المعاد، صفحة 185).

لقد عكس نتاج نعيمة إيمانه بأنّ الإنسان لا يتلاشى بالموت لأنّه خُلق على صورة الله ومثاله. فما الموت سوى تغيير طارئ في الشّكل، وهو مرحلة ملازمة للثّنائيّة لأنّ "الإنسان، بانتقاله إلى الثّنائيّة العاملة الواعية، مات للأحديّة الساكنة الغافلة. إذاً، ليس الموت بالقصاص؛ إن هو إلّا مرحلةٌ ملازمةٌ لحياة الثّنائيّة" (نعيمة م.، مرداد، الصفحات 765–766). وإنّه يستحيل على الرّجل أن يحقّق أحاديّته بمعزلٍ عن المرأة، والعكس صحيح، لأنّهما شطران يكمّل الواحد الآخر.

ومن المفيد الإشارة إلى أنّ الموت في بعضٍ من نتاج نعيمة الأدبيّ، يثير في النّفس الحزن والاستنكار، ولا سيّما حادثة موت الطّفلة التي دفنها أبوها بيده حيّة تحت صنوبرات الكنيسة. ما أراده نعيمة من خلال هذه المواقف هو إستفزاز النّفس الإنسانيّة والمشاعر البشريّة تجاه ردّة فعل المجتمعات الشرقيّة السلبيّة تجاه المولودة الأنثى. هذا الإحساس عينه، يختبره القارئ أيضاً في أقصوصة "شهيد الشّهد"، إذ يثور على المجتمع الّذي يهمل الفقراء، ولا يؤمّن الحماية والرّعاية النّفسيّة والجسديّة للأطفال والأولاد. وإنّ موت خيزران العبثيّ، يعكس صورة سلبيّة وقبيحة للموت.

أولاً: الكينونة والشّعور

أن نكون يعني أن نحيا. وإنّ الكينونة تجد تعبيراً لها في نواحي الحياة المختلفة بدءاً بالشّعور، إلى التّفكير، والكلام، والخيال. و"إنّ لكلّ شيء يكونه الإنسان أو يفعله معنى، وقيمة، وغاية" (مالك، صفحة 206). أمّا الشّعور فهو جزء من العمليّات العقليّة التي نحسّها، وندركها، ونعيها. وهي عادة ترتبط بحالة وجدانية انفعاليّة. لم يتسنّ لعدد من النّماذج الإنسانيّة في أدب نعيمة أن يحيا كينونته كاملة لأسباب مختلفة منها يعود إلى المرأة نفسها، ومنها يعود إلى أسباب خارجيّة.

وثمّة امرأة ألغت كينونتها بنفسها، لأنّ أقرب النّاس إلى نفسها وإلى كينونتها ألغاها كائناً مستقلاً عن سائر البشر. مأساة تلك المرأة تكمن في أنّ الرّجل الّذي وضعت بين يديه كلّ كيانها قلباً وروحاً وحياة، لم يكتف بها وحدها دون أيّ كائن آخر. حبّه لها لم يتوقّف عند حدود كينونتها، بل تعدّاه إلى كينونة طفل يرث إسمه. هو لم يرضَ بها وحدها. بينما هي رضيت به وحده لأنّه كان لها الكلّ بالكلّ. سعادتها تمّت به وبحبّه. أمّا سعادته فلم تتمّ بها وبحبّها، بل كانت تتوق إلى مكمّل لتلك السّعادة وذلك الحبّ. في بداية الأمر، حاولت جميلة أن تعالج أزمة كينونتها بالصّمت، ثمّ إستسلمت للوجع، يستبدّ بكيانها جسداً وروحاً، ولا سيّما حين وعت كلّ الوعي أنّ حبّ عزيز لها من البداية إلى النّهاية لم يكن حبّاً لشخصها هي، لم يكن حبّاً لها كإنسان مستقلّ بوجوده وكيانه في هذا العالم (نعيمة م.، كان ما كان، صفحة 353).

بعد أن تأكّدت جميلة أن عزيزاً لم يكتف بكونها امرأة مستقلّة بنفسها، راحت جميلة تلغي وجودها شيئاً فشيئاً. وقد ظهر فعل الإلغاء على مراحل: وجع في القلب، ثمّ ألم في القلب والنّفس، ثمّ انحباس الدّمع، ثمّ تمنّع، ثمّ ذوبان كالشّمعة، ثمّ سكوت وبكاء صامت، ثم إستسلام، ثمّ فعل زنى، ثمّ انتحار وموت. فشربت

السمّ وألغت كينونتها بنفسها لأنّها أرادت أن تتحرّر من فعل الخطيئة ومن حياةٍ لا تحترم كينونتها المستقلّة عن أيّ كينونة أخرى. قد يسبّب الشّعور في بعض الأحيان سبباً لأزمة كينونة خطيرة عند المرأة في نتاج نعيمة. ولعل العقر هو من أكثر الحالات التي سبّبت تلك الأزمة عند نعيمة.

وقد تحكّم الشّعور أيضاً بنموذج نسائيّ أخر في أقصوصة "ويذوب الجليد". فزوجة ضرغام، بعد موت وحيدها، تغيّرت وتبدّلت، إذ أُصيبت بضرب غريب من المسّ. وتكشف أحداث الأقصوصة أنّ هذا المسّ تحوّل إلى شعور إنسانيّ مسّ العالم بأسره كما مسّ العام الجديد. هو شعورها بالجليد يلفّ العالم كما يلفّ قلب العام الجديد. هذا الشّعور أملى عليها أن تشعل النّار لتذيب مياه البحيرة المتجمّدة. إنّ هذا الجليد هو رمز للقلوب الّتي ملأها البغض والشّح والنفاق والجشّع والظلّم، فأنتجت جوعاً وعفناً وحرماناً وموتاً. من جهة أخرى، فإنّ إشعال النّار قد يدفئ القلوب بالمحبّة والجود والصّدق والرّضى والعدل، لعلّ العام الجديد يحمل سلاماً وبحبوحة و عطراً وعافية وطمأنينة. إنّ شعور هذه المرأة هو شعور مصلحة إجتماعيّة تبحث عن تأمين تكافؤ الفرص، لعلّها تنجح في تدفئة الكون وإصلاح الزّمان. وكاد شعورها الجارف وتصميمها العنيد في إصلاح قلب العالم وتدفئة العام الجديد أن يقضي على حياتها. وتالياً، يصح أن يقال فيها إنّها إمرأة وضعت كينونتها في الخطر، مؤمنة أنّها قادرة على إصلاح كينونة العالم، وتحديد أهداف له سامية وإنسانيّة من شأنها أن تنشر العدل والسّلام في أرجاءه.

ولعب الشّعور دوراً خطيراً في قدر المرأة عند نعيمة. فقد بدأت أقصوصة "هدية الميلاد"، تصف شعوراً غريباً رافق العجوز صباح الرّابع والعشرين من كانون الأوّل. ذلك الشّعور كان قوياً وكأنّ "في الجوّ ما ينذر –أو يبشّر– بانقلاب بالغ الأهميّة في حياتها. وعبثاً حاولت أن تعرف مصدر ذلك الشّعور، أو أن تفهم شيئاً عن طبيعة ذلك الانقلاب" (نعيمة م.، هوامش، صفحة 456). إنّ شعور الصّباح الغريب، تحوّل لاحقاً إلى شعور يشبه اليأس. "ذلك الشّعور هو أن ما فعلته اليوم، وفي مثل هذا اليوم على مدى خمسين سنة، لم يكن غير سخافة في سخافة، لا يقدم عليها إلّا كلّ مجنون وأرعن. فأيّ نفعٍ للموتى في شجرة تقيمها لهم في صحن الدّار، وتزيّنها أجمل الزّينة بالأنوار الملوّنة والهدايا النفيّسة؟" (نعيمة م.، هوامش، صفحة 458). ولكنّه تبدّل في المساء. إنّ كلّاً من شعور الصّباح وشعور المساء المختلفين كلّ الاختلاف متّصلان أشّد الاتّصال بكينونة تلك العجوز الّتي كانت تعيش منفردة وحيدة بعد مصرع عائلتها الصّغيرة. أمّا اليوم، فقد قررت أن تنفتح على الموتى حيث هم، وعلى نفسها أيضاً. إنّ ذلك الشّعور المتفائل المنفتح على الحياة، أرسل إليها طفلين يحملان إسمي ولديها الغائبين منذ نصف قرن، فكانا لها أجمل هديّة ليلة الميلاد. ولو شئنا تحديد ذلك الشّعور الصباحيّ الّذي إستبدّ بالعجوز، لقلنا إنّه الإيمان. ليصبح بعد سنين من الصّبر، إيماناً قوياً أعاد الحياة إلى أمومتها وإلى قلبها المتجدّد بقوّة العطاء.

وأمّا مسز تشابمن، فقد كانت تحيا حياة تافهة لأنّه لم يتسنَّ لها أن تختبر مشاعر وأحاسيس مكبوتة لم تكن حتّى تدري بوجودها، إلى أن فجّر صبيّ البادية، وبسرعة، تلك العواطف الجامحة المكبوتة، ولا سيّما مشاعر الأمومة الرّاقدة. هذه المشاعر الجامحة التي تمسّكت بالبدويّ إلى حدّ الاحتفاظ به إلى الأبد، ما لبثت أن تحوّلت وتبدّلت بعد إختفائه لتدخل في صمت طويل وكبير. إنّ مشاعر تلك المرأة عرفت المراحل الآتية: فراغ، فامتلاء، فنشوة، ففراغ، فصمت طويل. وكأن ظهور ذلك الصّغير كان بمنزلة درس تعلّمت منه مسز تشامبن، أن أهميّة المرأة تكمن في أمومتها الّتي هي جوهر وجودها لأنّها تضفي على كينونتها ألقاً ومعنًى. لذلك كادت تفقد رشدها بعد فقدان الأمل من العثور على الولد.

وقد يحدث أن تحيا المرأة في أدب نعيمة حياتاً تتجاوز السّنوات التّسعين، ولا تشعر حقًّا بكينونتها. من جهة أخرى، قلّة هم الناس الذين يتسنى لهم أن يعوا كينونتهم، ويشعروا بإتّصالهم المتين بالوجود والحياة من حولهم. من بين النّساء اللّواتي عرفن هذا الشّعور، هي العجوز في أقصوصة "ساعة". في تلك السّاعة، شعرت أنّها أمّ للكون، وقد تخيلت إبنتها جنيناً في أحشائها، بينما تخيّلت أحشاءها أوسع من الفضاء، ثمّ تخيّلت جميع ما في الكون من مخلوقات، أجنّة في أحشائها. لقد إستحقّ هذا الشّعور أن يفرض الصّمت فرضاً لأنّ الصّمت أبلغ من الكلام في وصفه. ولعلّ ذلك الشّعور هو خلاصة الكينونة، "وما تبقى فكوابيس وأضغاث أحلام" (نعيمة م.، هوامش، صفحة 524).

ثانياً: الفكر والخيال

لقد إرتقت الكلمة عند نعيمة وسمت أيّما سموّ. والسبب يعود إلى أنها الوسيلة الّتي من خلالها يعبّر الإنسان عن فكره ونفسه. الفكر إذاً يظهر من خلال الكلمة نطقاً أو كتابةً. وفي كتابتها أصبح للحياة البشريّة سجلّاً يحفظ أنواعاً مختلفة ومتفرّقة من المعارف والحضارات والثّقافات. "أخذ الإنسان يعبّر عن نفسه بالكلام. فكان الحرف وكان المقطع، وكانت الكلمة" (نعيمة م.، المراحل، صفحة 30). فالكلمة تعبّر عن الفكر، والفكر يقودنا إلى الحقيقة.

أمّا الخيال عند نعيمة، فهو مقدرة الإنسان أن يبصر وأجفانه مغمضة، ويسمع وآذانه مسدودة، ويشمّ وفي أنوفه سطام، ويتذوّق وألسنته في غلاف (نعيمة م.، زاد المعاد، صفحة 120). فمن المؤكّد أنّ السّلاح الأهمّ والأقوى الذي يملكه الإنسان ضدّ المجهول هو الفكر. فلولا عمل الفكر المتطوّر عبر الأزمان، لكان الإنسان لا يزال يعيش في المغاور، ولما تسنّى له أن يسير أغوار هذا الكون، وأن يغزو الفضاء، ويحقّق الإبداع في مجالات العلوم الإنسانيّة كافة. هذا السّلاح يصدأ بالإهمال وقلّة الإستعمال، أو بالإستعمال في غير الأغراض الّتي من أجلها وُجد. ونحن عندما نكثر الكلام في توافه الأمور إنّما نسدّ على الفكر المنافذ إلى جليلها.

وإنّ ثريّا في أقصوصة "ثائران" لم تدع سلاح الفكر عندها يصدأ، بل إستعملته بصمتٍ وإصرارٍ ليغيّر في مسار الأقصوصة، إذ تركت هي خطيبها لتصبح ثائرة على الّذين يستأثرون بخيرات الأرض.

كذلك، فالفتاة في أقصوصة "زلزال"، قد إعتمدت لغة الفكر والمنطق في حوارها مع رئيس الدّير حول الثّورة وأهدافها، وحول الظّلم في الأرض. كانت تبحث عن حَكَمٍ عاقل يلجأ إلى الفكر والمنطق ليحكم على أفعالها. حتى الله، رفضت أن يكون في معادلة الحكم، وقد أعطت للفكر الحقّ في البتّ بينها وبين والدها. فقالت لرئيس الدّير: "دع الله جانباً. فقد يكون إلهك غير إلهي. نحن بشر، وإنّي، إذا صحّت فراستي فيك، لن أجد قاضياً له عقل كعقلك، ونزاهة كنزاهتك" (نعيمة م.، أبو بطة، صفحة 611). لقد إعتمدت تلك الفتاة الإعتماد الكامل على الفكر الّذي آمنت أنه لا بدّ من أن يقودها إلى الحقيقة لأنّ فيه القوّة الّتي لا تضاهيها لا قوّة السلاح ولا قوّة المال.

وثمّة إمرأة أخرى، حكّمت فكرها في جميع مسائل الحياة، فأبت أن تأخذ الأمور على علّاتها، لأنّ "عقلها لا ينفكّ يسأل ويمحّص ويستنتج" (نعيمة م.، هوامش، صفحة 327). لذلك كان من الصّعب عليها أن تنسجم مع أهل قريتها، لأن فكرها كان يرفض مسلّماتهم، وقد صدر عن تلك المرأة الملقّبة بفيلسوفة الضيّعة، كلاماً وتحليلاً لا يصدر عن إمرأة قرويّة بسيطة، فهي فكّرت في عبارة "الله يرحمها"، وهي عبارة تُستعمل حتّى أيّامنا هذه في أثناء المآتم. كذلك، أشغلت فكرها بالكلام الّذي يردّده الكاهن في أثناء رتبة الجنّاز. وهو كلام لا يزال يتردّد حتّى السّاعة في الكنائس: "مكان خضرة. إيه؟ الله عنده بساتين، آ؟ حيث الصّدّيقون يستريحون؟ ! تَنابِل، إذا كانوا يستريحون إلى الأبد ولا يعملون أيّ شيء" (نعيمة م.، هوامش، صفحة 329).

لجأت أمّ فدعوس إلى الفكر لتصل إلى حقيقة الأمور. وقد سعت بكلّ ما أوتيت من منطق لتشرح لأهل قريتها أنّه ليس صحيحاً أن تكون الأعراف والتقاليد على حقّ، ولو أتت على لسان كاهن أو رجل دين. وقد عرفت المرأة في أدب نعيمة عظمة الفكر في الصّمت والتأمّل. من خلالهما، إستطاعت أن تنفذ إلى قلب الأمور، فكان فكرها المولّد المصدر والأساس. فالفتاة في أقصوصة "حوار في ضوء القمر"، عرفت قيمة الفكر الصّامت الذي إعتمدته بديلاً عن الكلام، ليشكّل جسر عبور إلى الإحساس بجوهر الأشياء: "لا، لا، أن تحسّ الحبّ والجمال والحقّ والحياة والله ليس بالهذيان. والهذيان أن تصوّر ذلك الإحساس بالكلام، أو بالخطوط والأشكال والألوان والأنغام" (نعيمة م.، هوامش، صفحة 527). فالفكر في هذه الحالة، قاد الفتاة إلى حقيقة الأشياء. وبعد حوار مع صديقها حول سكينة اللّيل وحول الواقع والخيال، خلصت إلى نتيجة جاءت ثمرة تفكيرها العميق في واقع الأمور، وكيفيّة النّظر إلى ذلك الواقع من عيون مختلفة: "النّتيجة هي أنّ لكلّ لمحة من الزّمان واقعها في حياة كلّ إنسان، وهو غير واقعها في حياة غيره من الناس" (نعيمة م.، هوامش، صفحة 527).

وقد ساعد خيال المرأة في أدب نعيمة في إنارة أرجاء فسيحة من الحقيقة التي طال إختفاؤها خلف الحجب. فالفتاة في أقصوصة "عابر السّبيل" المقعدة منذ سبع سنوات، إعتمدت على خيالها لرسم صورة عابر السّبيل الذي أعاد الحياة إلى روحها، والحركة إلى رجليها. كما شفى والديها من علّتهما المزمنة. زارها الرّجل في المنام، ولكن خيالها إستطاع أن يرسم ملامحه كاملة وكأنّها قابلته في الحقيقة. وإنّ خيالها أملى عليها أنّ تتعلّق بتلك الصّورة، وبطيف ذلك الرّجل الغريب الذي رفض أبواها إستقباله لليلة واحدة. صدّقت أقواله في المنام، وقررت أن تتابع حياتها على ضوء كلامه، لأنّ ذلك الرّجل في المنام، أعاد الحركة إلى ساقيها.

وللخيال دور فاعل أيضاً مع الصبيّة في أقصوصة "صورة إلى (ميّ)". فسعاد لم ترَ الشّابّ قط. هي رأت صورته، فعشقتها إلى حدّ أن إمتلكت كيانها كلّه، فباتت تحيا من أجل تلك الصّورة، وتجتهد من أجلها، وتعمل من أجلها. دخلت الصّورة قلبها، وبؤبؤ عينها، ومشت في دمها. إحتلّتها من رأسها وحتّى أخمصيها، حتّى باتت هي غير هي. لقد تغذّى خيالها بعشق الشّاب في الصّورة، فباتت لا تقوى على العيش بعيداً عنه. فكان الخيال لها حياة في حياة، وحين خسرت الصورة، أصابها إنهيار أثّر على كيانها بكامله.

ثالثاً: المعرفة والحريّة

إنّ قضيّة المعرفة كانت وما تزال من القضايا الشّائكة والأكثر جدلاً عند الفلاسفة القدماء والمحدثين على حدّ سواء. وقد إختلفت الطّرق الّتي سلكها الفلاسفة والمفكّرون في معالجة هذه القضيّة. ومن الحقّ الإعتراف "أنّ القدماء والمحدثين لم يسلكوا في إستكشافهم سرّ المعرفة الطريق عينها" (ضومط، صفحة 85).

المعرفة بالنسبة إلى نعيمة، هي الفرح الذي لا يضاهيه فرح، بل هي إقتراب الإنسان من السّعادة الّتي ينشدها كل لحظة. "والنّاس كلّ أعمالهم قبض ريح، فلا علومهم وفنونهم، ولا إختراعاتهم وإكتشافاتهم، ولا متاجرتهم وسياساتهم قرّبتهم قيد شعرة من السّعادة الّتي ينشدون، والمعرفة الّتي يطلبون" (نعيمة م.، الغربال، صفحة 529). وعندما يصبح الفكر في متناول الإنسان، يتحوّل إلى عامل إيجابيّ للمجتمع، وإلى محرّك حيويّ للحياة الاجتماعيّة، وإلى حافز يدفع الإنسان إلى المعرفة المؤديّة إلى الحريّة. "فمثلما يفتّش الطّفل عند ولادته عن ثدي أمّه مدفوعاً بغريزة تكفل له وجود ذلك الثديّ، هكذا نفتّش نحن عن المعرفة مدفوعين بغريزة تكفل لنا وجود تلك المعرفة، وتكفل فوق ذلك قدرتنا على بلوغها" (نعيمة م.، النور والديجور، صفحة 583).

فالحياة من غير حرّيّة موت. وثمّة أمور عديدة ومختلفة تقيّد الحرّيّة. لعلّ أهمّها وأخطرها الجهل. فمن عرف نفسه، نَعِمَ بالحرّيّة الكبرى الّتي لا تحدّها لغة، أو عقيدة، أو جنس. ومن "تذوّقها يوماً، فقد تذوّق

الألوهة. والألوهة تعني معرفة كلّ شيء، والقدرة على كلّ شيء. فهي الحرّيّة المطلقة التي نصبو إليها بكلّ ما فينا من قوّة الحياة، والّتي نتخدّر من حين إلى حين بنسمة من نسماتها" (نعيمة م.، النور والديجور، صفحة 600). إنّ الإنسان الّذي يتعمّق في أسباب وجوده، وفي هدف حياته، سيعرف "أنّ صراعه مع الأرض ليس صراعاً في سبيل الحصول على سمن الأرض وشهدها، بل في سبيل الإنعتاق من رقبة الأرض. وكذلك صراعه مع السّماء لن يكون في سبيل النّجاة من جهنّم والتّمتع بالجنّة، بل في سبيل المعرفة الرّبانيّة الّتي لا تعرف الخوف من أيّ نوع كان، والّتي تتسامى فوق كلّ متعة مهما طابت مذاقاً" (نعيمة م.، النور والديجور، صفحة 674).

صحيح أنّ فتاة الأرقش ميتة، ولكّنها المحرّك الأساسيّ للمذكرات بكاملها. وقد شكّل طيفها المحور الجوهريّ لأفكار الأرقش وتأمّلاته في الحياة والموت وكل ما يتعلّق بهما. فمنذ المذكّرات الأولى، كان طيفها مصدر ضبابٍ للفكر حيناً، ومصدر نقاوة حيناً آخر. فإنّ الأرقش الّذي نسي هوّيته، وأهله، ومكان ولادته، يعود ليبحث في ذاكرته وفي ذاكرة الزّمان عن نفسه وعن الرّابط الّذي يصله بتلك الفتاة الجريحة: "أمر عجيب غريب. كلّما زارتني هذه الفتاة شعرت كأنّ ضباباً كثيفاً يكتنف أفكاري. والأغرب من ذلك، أنّه كلّما طال وقوفها بجانبي، شعرتُ بالضباب ينقشع رويداً رويداً عن أفكاري. ثمّ شعرت كأنّ قرابة بعيدة تربطني بها – كأنّي رأيتها من قبل. كأنّي عرفتها. كأنّ بيني وبينها صلة. وأحياناً أكاد أذكر أين رأيتها، وكيف عرفتها، والصّلة التي تربطني بها. وإذا توشك الغشاوة أن تنقشع عن أفكاري تماماً، أطلبها فلا أجدها" (نعيمة م.، مذكرات الأرقش، صفحة 355). وإنّ محاولات الأرقش الحثيثة في البحث عن نفسه، ولا سيّما بعد أن فقد ذاكرته، جعلته يتعمّق في مسائل وموضوعات عميقة وشائكة كالقدر والموت، والحزن والفرح، والسكوت والألم، والحبّ والزّواج. ولعلّ ملامح وجه الفتاة الّتي كانت تتراءى للأرقش بين الفينة والفينة، قد أيقظت رغبته في الوقوف على معاني الحبّ والألم، وأبعادهما في الحياة الإنسانيّة. لمح الأرقش في وجه فتاته ملامح غريبة لم يألفها من قبل. فوجهها "كأنّه صِيغ من أصفى معادن الحبّ والألم لا غير. بل كأنّه الحبّ والألم في تزاوج سماويّ" (نعيمة م.، مذكرات الأرقش، صفحة 394). هذا الوجه إستفزّ فكر الأرقش وعواطفه، فراح يتساءل عن هويّته وعن معنى الحبّ، وتحديداً حبّ الرّجل للمرأة. فهل الحبّ يساهم في معرفة النّفس والتحرّر من الجهل؟

صحيح أنّ الألم لا يفتأ يلقي دروساً على الإنسان في كلّ زمان ومكان، ولكنّ ألم الأرقش ناتج عن مأساة. فالفتاة التي أحبّها ذبحها لأنّ حبّه فوق ما يتحمّله جسده، ودون ما تشتاقه روحه (نعيمة م.، مذكرات الأرقش، صفحة 417). وما زاد في مأساته، أنه لم يعمل على إنهاء إرتباطه بالعالم الأرضيّ، فإستمرّ

جهاده، وبقي مصلوباً متألّماً يبحث عن المعرفة المعصورة من الألم. وهو في جهاده، كان عرضة لتجارب نفسيّة وجسديّة هزّت كيانه هزًّا عنيفاً. ففي إحدى زيارات الطّيف، أحسّ بموجات تلطمه من كلّ الجوانب، ولا تزال به حتّى تغمره من أمّ رأسه حتّى أخمصيه. فإذا به لهيب ووجيب، وشهوة جامحة بأن يحرق الفتاة ثمّ يحترق وإيّاها بنار واحدة، وفي أتّون واحد، وأن يعيشا الأزليّة والأبديّة في لمحة واحدة (نعيمة م.، مذكرات الأرقش، صفحة 416). هكذا، كانت الفتاة، كلّما زارت الأرقش بطيفها، تنشب حرباً في ذات الأرقش على ذات الأرقش. إنّها حرب تحقيق الهويّة، وبلوغ المعرفة الّتي من شأنها أن تحقّق الحرّيّة.

وفي النّهاية، وبعد صراع عنيف ومعاناة وجوديّة موجعة، راح الأرقش ينشد المعرفة القصوى، ومن خلالها معرفة نفسه، ومعرفة الكون الّذي يحيط به بكلّ جزئيّاته. ووعي أنّ تلك المعرفة الّتي ينشدها كفيلة أن تحرّره، ولكن ساعة عادت إليه ذاكرته، ضاعت المعرفة الّتي كان يتوق إليها، و "حلّت محلّها المعرفة الّتي لا تُعرف، ولا تعرف أنّها تُعرف" (نعيمة م.، مذكرات الأرقش، صفحة 440). فحبّه للمرأة الّتي اختارها عروساً له، دفعه إلى ذبحها، ففقد ذاكرته، وراح يبحث عن حرّيّته في معرفة تاق إليها وهو فاقد الذّاكرة. وحين عادت إليه ذاكرته، ذبح نفسه. هذه الدّائرة الّتي رسمت مسيرة الأرقش، بدأت بالمرأة، وإستمرّت فيها وإنتهت بها، أمّا الّذي طبع تلك الدّائرة، فشوق الأرقش إلى معرفةٍ، تختلف عن الّتي ينشدها عامّة النّاس كمعرفتهم لأحسابهم وأنسابهم ومراتبهم ومطامعهم ونُظمهم وتقاليدهم. هي معرفة تصبو إلى الحرّيّة، فإنّ كلّ الكائنات تتوق إلى الحرّيّة بكلّ ما فيها من قوّة الحياة. والإنسان مطبوع على طلب الحرّيّة هو الآخر. لذلك يمضي في حربه مع الأرض إلى أن تتمّ له الغلبة، فيتمتّع بالحرية المنشودة. وقد سار الأرقش في حربه الأرضيّة نحو هدفه الأسمى، وتذوّق لذّة المعرفة ومرارة الألم معاً. وراء ذلك الطّريق الطّويل والشّائك، كانت المرأة نقطة البداية ونقطة النّهاية. فالأرقش أحبّها، ثمّ تزوّجها، ثمّ ذبحها، ثمّ بحث عنها وعن نفسه، ثمّ ذبح نفسه.

إنّ هدف الإنسان الأسمى بشطريه الرّجل والمرأة، بنظر نعيمة، هو تحقيق المعرفة الّتي هي مرادف للفرح العظيم أو لغبطة الوجود حيث تنتفي المتناقضات على اختلافها. وقد تخيّل نعيمة الله يخاطب الإنسان، إمرأة ورجل حين نهاهما عن الأكل من ثمار شجرة المعرفة هكذا:

"يا أدم ويا حواء!

ذاتٌ من ذاتي أنتما، وعلى صورتي وكمثالي، لكنّكما طفلان تجهلان كلّ شيء ، وأنا أريد لكما أن تعرفا نفسيكما وتعرفاني لأفرح بكما وتفرحا بي. فالمعرفة وحدها هي الفرح الأكبر الّذي لا يدانيه فرح. إنّها الغبطة بالوجود الّذي تتلاشى في رحابه المتناقضات كلّها، فلا فوق ولا تحت، ولا قبل ولا بعد، ولا شرّ ولا خير، ولقد جهزتكما بكلّ ما تحتاجان إليه لبلوغ المعرفة – حتّى بحرّيّة الاختيار. عساكما بالتّجربة تهتديان إلى الطّريق الأمثل المؤدّي إلى المعرفة المثلى" (نعيمة م.، يا بن آدم، صفحة 101).

ويستحيل على هذه المعرفة المثلى أن تتحقّق للرّجل بمعزل عن المرأة. فإنّ شرط تحقّقها عند الرّجل، هو وجود المرأة، والعكس صحيح. فلا نصيب للرّجل من الحياة إذا كان وحده. لأنّه منفرداً، لن يعرف معنى الشّوق والسّعي والشّهوة. وتالياً، تصبح حياته قاحلة لا حياة فيها ولا هدف ولا غاية ولا مستقبل. "وهو إذ ذاك أشبه ما يكون بسلك مشحون بالكهرباء السّلبيّة أو الإيجابيّة فلا هو نور ولا هو ظلام، ولا هو حرارة ولا هو برودة" (نعيمة م.، النور والديجور، صفحة 585). فقبل أن ينشطر الإنسان إلى امرأة ورجل، لم يعرف الشّوق إلى المعرفة وإلى الحرّيّة. أمّا بعد الانشطار، فراحت المرأة تبحث عن الرّجل لتكتمل به وتحقّق هدف بلوغها المعرفة. لأنّ من شأن المعرفة أن تحرّرها من رقبة الجهل، وتعينها على التّغلّب على الموت وعلى تحقيق الكمال. بعد أن أصبح الإنسان رجلاً وأنثى، "راح كلّ شطر يفتّش عن الآخر ليكتمل به. فكان إحتكاك، وكان نور، وكانت حرارة، وكان سعي، وكان وعي، وكانت شهوة، وكان فكر، وكان هدف، وكانت إرادة، وكان شوق وحنين إلى المعرفة، فإلى الغلبة على الموت، فإلى الاكتمال" (نعيمة م.، النور والديجور، صفحة 585).

إنّ الغاية وراء إزدواج الإنسان إذاً، هي سلوك الدّرب المؤدّي إلى المعرفة. فلو بقي الإنسان منفرداً، لما وجد كائنٌ يشبهه على هذه الأرض ليفجّر مواهبه، ويحثّه على الخلق والإبداع. فآدم إذاً، عقيم من دون حوّاء. فهي الّتي نبّهته إلى شجرة المعرفة والحياة. "وحسبها شرفاً وعزّاً وكرامة أن تكون أمّ الحياة وأمّ المعرفة معاً" (نعيمة م.، في مهبّ الريح، صفحة 471). ويرى نعيمة أنّ على المرأة أن تدرك أنّ إزدواجها هو مرحلة مؤقّتة تسبق الوحدة. وهي حين تعي هذه الحقيقة، يهون عليها التّعامل مع أمجاد العالم ومشاكله من تأدية واجبات وإحترام حقوق. وهي حين تعمل مع الرّجل يداً واحدة وفكراً واحداً، فلا بدّ من أن تفلت من حبائل الخير والشّرّ لتشكّل مع الرجل ذلك الكائن الجّبار الّذي يشبه نسراً عظيماً يسبل جناحين متساويين جمالاً وقوّة ليشقّ أجواء الوجود إلى حيث المعرفة والقدرة والحرّيّة، فصورة الله لن تُمسخ شيطاناً، وأمّ الحياة لن تغدو أمّ الموت" (نعيمة م.، في مهبّ الريح، صفحة 472).

ولعلّ أسمى مرحلة يصل إليها كلّ من الذّكر والأنثى، هي حين يتحوّلان مع فعل تجديد النّسل إلى أمّ وأب. والأمّ والأب هما مصدر الحبّ الّذي لا يعرف حدوداً، ومنبع العطف الّذي لا ينضب. فالطّبيعة أودعت المرأة والرّجل كنوزاً من المشاعر لعلّ أثمنها المحبّة. يستحيل على الرّجل أن يسبق المرأة في أيّة مرحلة من المراحل. هي مسألة تعاون من أجل المعرفة، ومن أجل تحقيق الحرّيّة في الوحدة. فكلاهما يتمّم الآخر، ولا إستمرار لأيّ منهما منفرداً. "فلا حرّيّة للمرأة بغير حرّيّة الرجل ولا سعادة له بغير سعادتها. فلا هي تتمّ إلّا به، ولا هو يتمّ إلّا بها" (نعيمة م.، المراحل، صفحة 83).

إنّ من إهتدى إلى الحرّيّة، يسعى بكلّ ما أوتي من فكر وقوّة إلى هداية الآخر إليها. فقدر المرأة أن تهتدي إلى جانب شريكها الرّجل يداً بيد إلى المعرفة الكاملة الّتي من شأنها أن تحقّق الحرّيّة لكلّ منهما.

"الرّجل الحرّ لا يزاوج عبدة. وإذا زاوجها فإمّا يحرّرها بحرّيّته وإمّا تستعبده بعبوديّتها. لا ولا يمكن حرّاً أن يكون أباً أو أخاً لعبدة. فمثلّث الحياة لا يعرف الخلل لأنّه مظهر نظام لا خلل فيه. فحيثما إستطال ضلع من أضلاعه إستطال الاثنان الآخران به، وحيثما قصر ضلع قصر الإثنان الباقيان. ومن يرى في مثلّث الحياة خللاً أو نقصاً، فلحسور في بصره أو قصر في إدراكه" (نعيمة م.، المراحل، صفحة 83). وقد صوّر نعيمة علاقة المرأة بالرّجل المنطلقة من مبدأ الثّنائيّة والتّواقة إلى الوحدة من جديد في إحدى قصائده المنشورة في ديوان همس الجفون، تحت عنوان: إلى MDB قائلا:

"أنا السّر الّذي إستترا
بروحكِ منذُ ما خطرا
ببالِ الكائنِ الأعلى
خيالُ العالمِ الأدنى
فصوّرَ من ثرًى بَشَرا
وأنتِ السِّرُّ في سِرّي
ومعنى العمرِ في عمري
وأنتِ اليأسُ في أملي
ومينا الأمنِ في وَجَلي
وأنتِ الخَلُّ في خمري
فهاتي يداً، وهاكِ يدي
على رَغَدٍ، على نكدِ". (نعيمة م.، همس الجفون)

فقد وعت المرأة في إنتاج نعيمة أنّ المعرفة وحدها هي بوّابة الحرّيّة. لهذا السّبب جاهدت بكلّ قواها من أجل تجاوز تلك الهوّة المعرفّية العميقة الّتي فصلت أحياناً بينها وبين شريكها الرّجل، فهي لن تستطيع بلوغ الحرّيّة المطلقة إلّا من خلال المعرفة. ومعرفة تتقنها هي، من غير أن يتقنها شريكها الرّجل، لمعرفة ناقصة. والمعرفة النّاقصة لن تحقّق الحرّيّة، لأنّ الحرّيّة تعني التّحليق عالياً بجناحي المرأة والرّجل. وإنّ بشريّةً، المرأة فيها مهمّشة وجاهلة، هي بشريّة، لا محالة غير قادرة على تحقيق الحرّيّة والسّلام أبداً.

الخاتمة:

الإنسان إذاً هو أعظم مخلوقات الله على الإطلاق. وعظمته لا تكمن في علومه وأعماله وإختراعاته، بل في مقدرته على المحبّة والفهم. والمحبّة والفهم لا يحصلان إلّا من خلال شطري الإنسان ذكراً وأنثى.

فالمرأة إذاً هي خلاص الرّجل، لأنّه بها يعرف نفسه، ويعرف الله، ويعرف كلّ شيء، فيعود من خلالها ومعها إلى حالة الوحدة الأولى، ممزّقاً كلّ الحجب التي تستر وجه الله فيه.

من خلال الموضوعات الّتي شغلت المرأة في أدب نعيمة، يمكن القول إنّ نعيمة مصلح إجتماعيّ بإمتياز. فنراه يعتمد مخاطبة عقل المرأة وقلبها ليصل إليهما في هدوء وثبات.

آمن نعيمة بقدرة المرأة على الإصلاح والتّغيير، ولا سيّما أنّ الحياة عنده شركة إنسانيّة. وقد بدا جليّاً في هذا السّياق تأثّره بتولستوي. فالّناس عنده عائلة إنسانيّة، وعليهم أن يعيشوا في اشتراكيّة إنسانيّة كاملة لتكون الأرض حقلهم ومخزنهم الكبير. فيدعو إلى أن نعدّ الإنسانيّة شركة متعاونة دون تمييز بين الذكر والإنثى فيها.

وقد نظر نعيمة إلى المرأة من خلال عقيدته القائلة إنّها أحد جناحيّ البشريّة. لذلك لم يقرّ بأنّها مظلومة حتى يقرّ بأنّ الرّجل أيضاً مظلوم بظلمها. فهو لم يرَ ذنباً يستغفر عنه المرأة إلا رأى من العدل أن يستغفر عنه الرّجل. رأى نعيمة أنّ حرّيّة المرأة مرتبطة بحرّيّة الرّجل. من هنا، فالرّجل هو مُسْتَعْبَدٌ طالما المرأة تطالبه بحرّيّتها. فعليها أن تدرك أن الحقوق الّتي تطالبه بها، لا تقربها، ولا تقرب الرّجل معها من حرّيّتهما. وحدها طريق المحبّة من شأنها أن تقرّبهما من نظام الحياة الشّامل.

وإنّ من شأن العلم والمعرفة، لتساهم في بناء الإنسان والمجتمع. دعا نعيمة المرأة إلى محاربة الجهل والانتصار عليه بالمفهم والمعرفة. كذلك ندّد بالمجتمعات المنغلقة والمنغمسة في تقاليد ونظم إجتماعيّة متحجّرة، وحمّل المرأة مسؤوليّة إحداث الوعي والانفتاح. وهي مطالبة بتحقيق صورة الله فيها وفي الإنسان المكتمل بها وبالرّجل على حدّ سواء.

وتالياً فالعمر هو عبّارة بين مرحلة ندعوها الولادة، ومرحلة ندعوها الموت، ولكنّه ليس له بداية ولا نهاية. فهي معرفة الإنسان نفسه والغاية من وجوده. وحين يصل الإنسان إلى تلك المعرفة المطلقة، يحقّق الخلاص. وقد سعت المرأة عند نعيمة للسّير في طريق المعرفة المؤدّية للخلاص. فتعلّمت بالصّمت التّعمّق بأسرار الوجود،وانتصرت بالتّأمّل على الثّنائيّات والأضداد، وأعانت شريكها على اجتياز امتحان الثّنيائيّة. فكانت له بمنزل الصّليب. منها تعلّم الصّمت والصّبر، ومن أجلها جاهد.

من دون المرأة، تعذّر على الرّجل أن يسلك طريق المعرفة، وأن يحقّق الوحدة. ومعها يحقّق توازنه، فينعم بالفهم الّذي يمهّد له طريق الخلاص. فيوم يصطلح داخل الإنسان، تصطلح المجتمعات، فيصطلح العالم، وتتطوّر البشريّة فتسود المحبّة ويعمّ السّلام. ويوم ينعتق الإنسان من فرديّته، يتّصل بالكون فتجتمع العوالم كلّها فيه. وإنّ أيّ إصلاح للإنسان، لا يمكن أن يكون إلّا بإصلاح المرأة.

آمن نعيمة بالإنسان رجلاً وامرأة. ورأى في المرأة عظمة مميّزة، فهي ليست أمّ الحياة فحسب، وليست عظيمة بأعمالها وأفعالها، ولكنّ عظمتها تكمن بمقدرتها على المحبّة وعلى التأثير على شريكها

الرّجل في البحث عن المعرفة الكاملة. وقد وعت المرأة في أدب نعيمة أهميّة الإمتداد في الذّات الكليّة، لذلك سعت للمعرفة الّتي من شأنها أن تقودها إلى المحبّة، فالإيمان المبصر؛ تمهيداً لإنتقالها من الإنسان المحدود إلى الإنسان في الحياة الّتي لا تُحدّ. فهي جسر ييسّر له العبور من المعلوم في ذاته إلى ما هو كامن فيه ولا يعيه. ويصحّ القول إنّ هذه النّتائج تشير إلى أنّ نعيمة قد سبق عصره بأشواط طويلة في ما يخصّ موضوع المرأة بكلّ ما يحمله هذا الموضوع من أبعاد إجتماعيّة وتربويّة وإنسانيّة وغيرها. وإنّ مواقفه تجاه المرأة لم تتغيّر مع الزمان، بل بقيت ثابتة حتّى يومنا هذا.

وكلّ ما أريد إيصاله هو عودة المرأة إلى وعي دورها الّذي هو أبعد من حدود المادّة والجسد، فإنّها شريكة الله في الخلق، وهي أمّ الحياة، ومن دونها لا وجود للإنسان، كذلك، فبحثنا هو إضاءة متواضعة لأدب رجل آمن بالإنسان إناءً خُتمت فيه إسرار الحياة. عسى هذا البحث أن يفتح آفاق أبحاث جديدة تتناول مسألة الموت في نتاج نعيمة، أو ملامح البيئة المحلّيّة في أقاصيصه ورواياته، أو حضور المرأة في أدب نعيمة. فنتاج الرّجل غنيّ وضخم، وموضوعاته متشعّبة ومتنوّعة، وهي تستحقّ الدّراسة والتحليل من زوايا مختلفة.

قائمة المراجع

بن منظور. (بلا تاريخ). *المجموعة الكاملة* (المجلد 3).

بن منظور. (بلا تاريخ). *لسان العرب* (المجلد 5).

بثينة شعبان. (2000). *المرأة العربية في القرن العشرين*. دار المدى للثقافة والنشر.

ثريا ملحس. (1968). *ميخائيل نعيمة : الأديب الصوفي*.

خليل ذياب أبو جهجه. (2003). *الرؤية الكونية في أدب ميخائيل نعيمة*.

رياض سليم. (1998). *التقاطع المعرفي بين ميخائيل نعيمة وكمال جنبلاط*. الدار الوطنية للدراسات والنشر والتوزيع.

شارل مالك. (2001). *المقدمة*. دار النهار للنشر.

عبد الكريم الأشتر. (1961). *النثر المهجري كتاب الرابطة القلمية* (المجلد 1). جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية.

متري بولس. (1985). *الخوارق في روايات ميخائيل نعيمة واقاصيصه* (المجلد 2). المطبعة فؤاد بيبان.

ميخائيل ضومط. (2005). *توما الاكويني*. دار الشرق.

ميخائيل نعيمة. (1918). *مذكرات الأرقش* (المجلد 4). مكتبة الصدر.

ميخائيل نعيمة. (1923). *الغربال* (المجلد 7). مؤسسة نوفل.

ميخائيل نعيمة. (1932). *كان ما كان* (المجلد 2). مؤسسة نوفل.

ميخائيل نعيمة. (1934). *المراحل* (المجلد 5). مؤسسة نوفل.

ميخائيل نعيمة. (1943). *همس الجفون* (المجلد 4). مؤسسة نوفل.

ميخائيل نعيمة. (1945). *زاد المعاد* (المجلد 6). مطبعة المقتطف والمقطم.

ميخائيل نعيمة. (1946). *الأوثان* (المجلد 3). مؤسسة نوفل.
ميخائيل نعيمة. (1946). *البيادر* (المجلد 4). دار نوفل.
ميخائيل نعيمة. (1948). *كرم على درب* (المجلد 3). مؤسسة نوفل.
ميخائيل نعيمة. (1952). *مرداد* (المجلد 6). دار نوفل.
ميخائيل نعيمة. (1953). *النور والديجور* (المجلد 5). مؤسسة نوفل.
ميخائيل نعيمة. (1954). *دروب* (المجلد 6). مؤسسة نوفل.
ميخائيل نعيمة. (1956). *أكابر* (المجلد 2). مؤسسة نوفل.
ميخائيل نعيمة. (1957). *في مهبّ الريح* (المجلد 5). دار صادر.
ميخائيل نعيمة. (1958). *أبو بطة* (المجلد 2). مؤسسة نوفل.
ميخائيل نعيمة. (1959). *سبعون* (المجلد 1). مؤسسة نوفل.
ميخائيل نعيمة. (1972). *هوامش* (المجلد 6). مؤسسة نوفل.
ميخائيل نعيمة. (1974). *يا بن آدم* (المجلد 7). مؤسسة نوفل.
ميخائيل نعيمة. (1989). *الآباء والبنون* (المجلد 4). مؤسسة نوفل.
نديم نعيمة. (1978). *ميخائيل نعيمة: طريق الذات الى الذات.*